

مقدمة:

يشغل البحث على تتبع المفاهيم الأساسية التي قامت عليها نظريات الخطاب الأدبي من منظور الأنساق النصية التي تسعى إلى استكشافها، ومن منظور الأنساق السيمائية التي تسعى إلى تأسيسها. ويبحث في مفهوم المقصدية بوصفها تضافر علامات سيمائية مع وجود متلق لها يقوم بتأويلها، بالإضافة إلى تحليل آليات اشتغال المربع السيميائي في تحقيق الدلالة والأنساق الفكرية داخل مشروع محمد مفتاح النقدي.

يطرح البحث عدة إشكاليات مترابطة، من أهمها:

- ما مفهوم الدينامية في مجال النظريات السيمائية والنصية؟
- كيف يمكن لعم البيولوجيا أن يزود النظريات النقدية بمفاهيم وآليات في قراءة الخطاب؟
- كيف شكّلت الخلفية النقدية المركبة لمحمد مفتاح العقل النقدي الذي يشغل وفقه؟
- ما مدى أهمية المفاهيم السيمائية في التأسيس لنظرية متكاملة في تحليل الخطاب جماليا وثقافيا؟
- هل يمكن الحديث عن نظرية سيميوتداولية في النقد الثقافي؟

1- توالد المفاهيم لدى محمد مفتاح (بيولوجيا علم النص نموذجاً):

لقد ارتبطت البيولوجيا بعلم النص، فقدمت له عدة مفاهيم محورية، تطرق إليها محمد مفتاح الذي اهتم أيضا بالعلاقة الموجودة بين علم البيولوجيا وعلم الأدب، فهو يرى أنّ النصّ "علم" كالعلوم الأخرى التي يمكن أن يخضع لدراسة علمية، إذ أسس خلفيته العلمية لمشروعه على نظريات لها علاقة بالرياضيات، والفيزياء، وعلم البيولوجيا، وأطلق تسمية بيولوجيا علم النصّ على هاته النظريات، والتي هي أساس علمي، ولبنّة من لبنات مشروعه، واستهلّ بالنظرية السيمائية ثم البلاغية والثقافية.

لقد ساعدت المنطلقات السيمائية المنهجية على تحويل العلوم الأدبية، من مجرد تأملات، إلى علوم، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، من خلال المظاهر الدلالية العامة، انطلاقاً من تجلياتها اللغوية، التي تتيح طرح تصوّر للأنساق المجردة، التي تحكم العلاقات الرابطة بين العناصر والانتقال بواسطتها من مستوى إلى مستوى آخر، مختلف عن الأوّل. وهنا تتمّ عملية التحوّل أو الدينامية داخل النسق، بغية إدراك النظام الكامن في الخطاب، الذي يكشف بنياته العميقة. وذلك، حيث أنّ الخطاب الأدبي عند "غريماس": "آلية منطقية تحكمها شبكة من العلاقات والعمليات التي تنظم النصّ السردية"¹. من هنا، فإنّه لا يتمّ استخراج النسق الثقافي المضمر، إلا بكشف شبكة العلاقات القائمة في صلب الخطاب، بربط الوحدات السردية وفق الغايات القصوى المقصود بلوغها، لأنّ جوهر الدلالة وعلاقتها بالخطاب الأدبي علاقة توليدية، "إذ تتمّ عملية استقراء الدلالة بتفجير

الخطاب، وتفكيك وحداته وتفكيك الوحدات المكوّنة له، التي تُسفر بدورها عن حصيلة دلالية هيكلية بإعادة بنائها وفق جهاز نظري متّسق التّأليف²، حيث يكون المعنى رهين ديمومة الخطاب، أي البنية المتكاملة المغلقة، التي تحكمها عناصر داخلية منفصلة عن العوامل الخارجية، حيث تتحرّك وتتورّع ضمن محاور دلالية بحكم امتلاكها لطاقة التّغيير والتّحول، وقد عني محمد مفتاح، بكلّ آليّة تحكمها هذه الطّاقة الدّينامية، التي تتولّد في النّظرية السّيميائية الفرنسيّة، من النّموذج العاملي بصفة عامّة ومحور الرّغبة التي تدفع الذات وتحركها، نحو موضوع القيمة.

إلا أنّ محمد مفتاح أراد أن يشمل هذا النّطاق أبعادا تداوليّة، فربطه بالمقصديّة، التي تؤدّي إلى إنتاج أفعالٍ حسب رغبة الذات في الحصول على موضوع القيمة، فكما أنّ المقصديّة أو القصد والمقصديّة، لا يقتصر على نظرية دون أخرى، بل هو وإالية تتناولها كلّ النّظريّات، في تحليل الخطابات على اختلافها، لأنّ "المميّز الأساسي بين لغة الإنسان وغيره، هي المقصديّة"³، التي شغلت حيّزا في نظريّات ما بعد الحداثة، وقبلها عند بعض الفلاسفة.

أمّا مفهوم محمد مفتاح للمقصديّة تكون بين "طرفين إنسانيين: مرسلا ومتلقّيا، بيد أنّ المقاصد أنواع: أوليّ يتجلّى في المعتقدات والرّغبات التي تكون لدى المتكلّم، وثانويّ يكون فيما يعرفه المتلقّي من مقاصد المتكلّم، وثلاثيّ ينعكس في هدف المتكلّم الذي يريد أن يجعل المتلقّي يعترف بأنّه يريد جوابا ملائما"⁴.

إنّ الخلفية النّظرية لمحمد مفتاح، لمفهوم المقصديّة تبلور من عدّة تيارات، إذ أخذ من غرايس باعتبارها (أي المقصديّة) "أوليّة غير قابلة للتّحديد، ولكنّه واضح الإطار، الذي يقع فيه وأنواعه، وقد انطلق من أنّ كلّ حدث سواء كان لغويّا أم غير لغويّ، إمّا أن يكون محتويا على نيّة الدّلالة وإمّا أن لا يكون محتويا عليها"⁵، أي أنّ غرايس لم يحدّد مفهوم المقصديّة، بل جعله هيواليا، لكنّ في الإطار الذي يقع فيه، أي أنّ السّياق هو الإطار الذي يحدّد مفهوم المقصديّة، لأنّه يؤمن بفكرة "النّص المفتوح"، أي أنّ غرايس كان "مهتمّا في شرح الاختلاف بين ما "يقال" وما "يعني"، ما يقال هو ما تعنيه الكلمات ظاهريا، أما ما يعني فهو التّأثير الذي يحاول المتكلّم إصغاءه معتمدا على المستمع أو المخاطب من خلال إدراك الأخير لهذا القصد"⁶.

إلا أنّ هذه العمليّة التّواصلية، بين المرسل والمرسل إليه، لا تكون دائما مثاليّة، بل هناك شروط يجب أن يستوفها المرسل والمرسل إليه، له علاقة بمنطق المحادثة، وهذا ما يسمّيه غرايس مبدأ التّعاون⁷.

بهذا المفهوم للمقصديّة عند غرايس، يعترض محمد مفتاح، أي أنّ العمليّة التّواصلية يمكن أن تفشل إذا ما لم تتوفّر شروط مبدأ التّعاون^{*}، ولن يفهم المرسل إليه (المتلقّي) قصد المرسل. وبالتالي "فإنّنا بعيدون كلّ البعد عن اتّجاه غرايس الميكانيكيّ المختزل للعمليّة اللّغويّة"⁸. إذ أنّ محمد

مفتاح، يرى أنّ هذا المفهوم للمقصديّة لا يشمل جميع الخطابات، بل يقتصر على بعض منها "النّاتجة عن عقدة بين المرسل والمتلقّي"⁹، لأنّ -حسبه- هذه العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، علاقة المتسلّط (المرسل) بمرسلٍ إليه خاضع، "أي صادرة من سلطة عليا دنيويّة أو رويّة، أي أنّها تفترض مرسلًا متسلّطًا ومتلقّيًا خاضعًا، ورسالة شفّافة لا إيهام فيها ولا غموض، ومتلقّيًا يعلم الظّاهر وما يخفى"¹⁰، وهذا المفهوم للمقصديّة يفتقد للدينامية المطلوبة، التي توصل الباحث الى تجلي النسق.

ينطلق سيرل من أنّ كلّ عمل هو حدث ناتج عن سبب راجع إلى عامل (Agent)، "فإنّه فرّق بين مفهومين، المقصد ما كان وراء وعي، والمقصديّة التي تجمع بين الوعي واللاوعي"¹¹، أي أنّ المقصديّة سابقة وحاصلة أثناء العمليّة اللّغويّة، وأنّ هناك قواعد لهذه العمليّة¹².

إنّ محمد مفتاح يبحث دائما عن العلاقات التّفاعليّة، واهتمّ بالسلوك اللّغوي التي تنتج هذا النوع من العلاقات، التي تتسم بالديناميّة، والمقصديّة علاقة تفاعل بينها وبين السلوك اللّغوي، أي أنّ "السلوك اللّغوي، فهو مشتقّ من القصديّة وليس العكس، فهي التي تتحكّم في الأفعال الكلاميّة بتحديد أشكالها وخلق إمكانيّة معناها"¹³.

كما أنّ محمد مفتاح يرى أنّ كلّ من غرايس، سيرل وأوستين يشتركون في مفهومهم للمقصديّة، ودائما يربطونها بالميكانيكيّة، باعتبار أنّ المقصديّة هي المميّز الأساسي، إذ يقول: "...فالباحثون جميعهم يجعلون المميّز الأساسي بين لغة الإنسان وغيره، هي المقصديّة، ولكنّ هناك من قصرها على ما ورد في جذرها صراحة أو ضمنا (بارت Parret)¹⁴. ومنهم من جعلها مسبقّة (غريماس)، كما أنّ منهم من جعلها ميكانيكيّة موجّهة (أوستين وغرايس، وسيرل)، بيد أنّها لا تقتصر على المتكلّم، ولكنّها تشمل المخاطب أيضا، ولهذا فقد "تتفق" المقصديتان درجات من الاتّفاق، وقد تختلفان درجات من الاختلاف (نظريّة التلقّي).

يبحث مفتاح دائما عن مفاهيم شموليّة، غير محدّدة بإطار نظري أو فلسفي واحد، أي ليست ذات توجّه واحد. لذلك يسعى دائما النّهل من مختلف المشارب العلميّة المعرفيّة، ليكون أو يستنبط مفهوم نموذجي يتماشى ومشروعه الشّمولي، لذلك، نرى أنّه في هذه النّقطة ربط المقصديّة بعدّة نظريّات:

• محور الرّغبة (النّظريّة السّيميائيّة الفرنسيّة) الذات ← موضوع (القيمة).

• محور التّداوليّة، عند كلّ من أوستين وسيرل وغرايس.

بالإضافة إلى الخلفيّة الفلسفيّة لكلّ اتّجاه، ولذا نخلص إلى أنّ محمد مفتاح يسعى دائما إلى مفهوم شمولي للمقصديّة، في العمليّة التّواصلية التّفاعليّة. لماذا؟ لأنّه كما قلنا آنفا، يبحث عن الديناميّة والحركيّة. إذن أين تكمن ديناميّة المقصديّة، ببساطة في العلاقة التّفاعليّة بين المرسل

(الذات) الذي يتحرك نحو موضوع القيمة، عند غريماس، وأمّا في التداوليّة، فهذا الأمر غنيّ عن التعريف، لأنّه بات معروفا أنّ العمليّة التّواصلية هي عمليّة تفاعليّة، عند التّداوليّين، لما تنتجها الأقوال من أفعال، هذا من جهة، وما تحدثه من تأثير على المتلقّي، من جهة أخرى.

إذن هناك تماس ونقطة مشتركة بين هذين التّيارين، وهو الدّيناميّة، التي بلورت مفهوم المقصديّة عند محمد مفتاح. وقد ذكرنا ذلك في المدخل، على أنّنا سنناول مشروعه ومنهجه في البحث بعين الاعتبار، فهو شموليّ النّظرة، وبالتالي يتوجّب علينا أن ندرسه من منطلق تفكيره، ونتبّع منهجه كذلك في البحث، لنلج بعض الشّيء إلى كنهه أفكاره ومفاهيمه.

2- المفاهيم السيمائية وسؤال التأسيس النقدي:

يرتبط سؤال التأسيس النقدي للمفاهيم الأنساقية الدلالية والثقافية بنقطين محورتين داخل فضاء النظرية السيمائية، وهما:

1- المربع السيمائي:

إنّ أيّ تفاعل/تواصل يحتاج إلى أرضيّة ليتحقّق، فالمقصديّة كي تتجسّد على أرض الواقع، يجب أن يكون هناك فضاء وزمان بين أطراف محور الرّغبة (ذات ← الموضوع)، والتي قد تنازع هذه الأطراف، سواء متأبّية أو منقادة "ومهما يكن الأمر، فإنّ هناك تفاعلا يجري في فضاء وزمان معيّنين ويتحقّق فيهما عبر العلامات اللّغويّة"¹⁵.

وكي تتحقّق التّوايا عند غريماس، وتُترجم إلى عمل واقعي، وفعل مجسد على الأرض "تكوّن ميدانا تتموقع فيه الأطراف المتواجهة والمتجاذبة، ذلك الميدان هو المربع السيمائي"¹⁶.

المربع السيمائي الذي جاء به كلّ من غريماس وراستي، يسمح بصقل (وتحسين) التّحليلات بواسطة المعارضات أو المتناقضات، عن طريق تمرير عدد من المراحل التّحليليّة أو الفصول لتّحليليّة النّاتجة عن ثنائيات متقابلة متضادّة، على سبيل المثال (حياة/موت) إلى رباعيّات على سبيل المثال (حياة، موت/ الحياة/الموت ← ميّت حيّ، لا حياة، لا موت ← ملاك)، كما يمكن أن تصل هذه التّقابلات إلى ثمانية فصول، وحتّى إلى عشرة.

ما يمكن أن نخلص إليه هو أنّ المربع السيمائي يحتكم إلى مجموعة من العلاقات، هي: التّضاديّة (التّضاد وشبه التّضاد)، التّناقض والتّضمين. و"هذه العلاقات تحكمها قيم موقعيّة وتعارضات كيفيّة وحرمانيّة"¹⁷.

ولكلّ عنصر من هذه التّعارضات مقوّمات، هي التي تحدّد نوع العلاقة (تضاد أم تناقض)، وتنسلّ منها عدّة تقاطعات بين هذه التّعارضات، ممّا يطرح عدّة اشكالات، سعى الباحثون إلى حلّ

بعضها، كما فعل كل من غريماس وكورتيس، ولتوضيح هذه المقومات وتعارضاتها، يجب أن نحلل كل عناصر هذه التعارضات:

مقومات الرجل وأعراضه:

رجل = [+حيّ]، [+ذكر]، [+بالغ]، [+عاقل]... [+أبيض]...

مقومات المرأة وأعراضها:

امراة = [+حيّة]، [-ذكر]، [+بالغة]، [+عاقلّة]...

ومقومات الثور هي:

ثور = [+حيّ]، [-ذكر]، [-بالغ]، [-عاقل]... [-أبيض]...

نلاحظ أن ليس هناك فروق وتعارضات كثيرة بين مقومات كل من رجل/امراة، وإنما هناك فرق واحد هو [-ذكر]، وهذا يسمّى النفي الكمي.

على أن التعارضات كثيرة بين حدّ رجل وحدّ ثور، إذ لا جامع بينهما سوى [+حيّ]، وهذا هو النفي الحرمانّي.

ولا يتوقّف الأمر هنا، بل يمكن أن نقابل بين رجل/لا رجل، مع مراعاة وحدة الشّخص والزّمكان، فإنّ النتيجة ستكون كالآتي:

رجل = [+حيّ]، [+ذكر]، [+بالغ]، [+عاقل]...

لا رجل = [+حيّ]، [+ذكر]، [-بالغ]، [-عاقل]...

ينتج هنا علاقة التّناقض، بمعنى لا يمكن أن يجتمعا، ولا يمكن أن يرتقيا معا، وهذا ما يطلق عليه في الفلسفة بالنفي العدمي. فالنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان معا.

إلا أن يمكننا أن نقول (لا امراة/لا رجل) يؤدي بنا هذا القول إلى التحليل الآتي:

لا رجل = [+حيّ]، [± ذكر]، [+بالغ]...

لا امراة = [+حيّة]، [± ذكر]، [+بالغة]...

• علاقة شبه تضاد، لأنّه هناك احتمال آخر هو "الطّفّل".

• أمّا علاقة التّضمن، فنوضّحها في المثال التّالي:

نفترض أن "لا أخضر" $\subset$ أحمر، أبيض، أزرق...

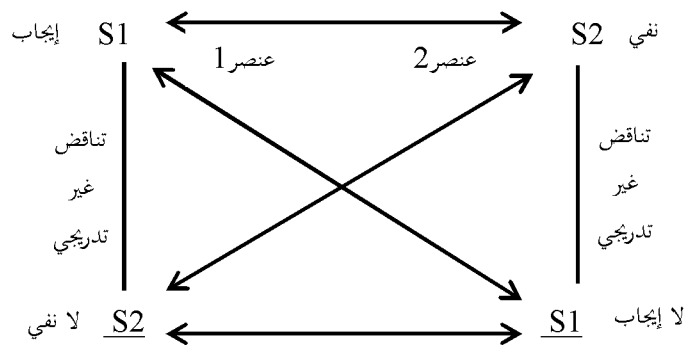
وإذا قلنا "لا أحمر" $\subset$ أخضر، أزرق، أسود...

نتساءل هنا، هل هناك نفي كفي وحرمان من جهة، وهناك نفي عديم من جهة أخرى؟

يجيب محمد مفتاح عن هذا التساؤل، استناداً إلى مبدأ الدينامية الذي يعمل به، فيوضح قائلاً: "قد يكون الجواب بالإيجاب إذا اعتبرنا العلاقات بين الحدود منطقية سكونية، ولكنه يكون الجواب بالنفي إذا ما أخذنا بالحسبان دينامية العلاقات بين الأطراف، وبهذا الاعتبار الأخير، فإنه ليس هناك إلا النفي الكفي والحرمان الذي يسلب بعض المقومات أو كثيراً منها، مما يجعل النص ينمو أفقياً (وعمودياً) بوسيلتي المشابهة والاختلاف"¹⁸.

يعني هنا محمد مفتاح أن حدود التعارضات ومقومات كل حد منها يخضع للنمو، ولا يتحقق هذا النمو إلا في النفي الكفي، أي بين حدي رجل/امرأة، والنفي الحرمان بين حدي رجل/عجلة. وهذا ما ينتج علاقتي المشابهة والاختلاف. اللتان تجعلان الخطاب في حركة ودينامية أفقية وعمودية.

وهذا ما فعله غريماس في توضيح هذه العلاقات، على شكل عرض بصري، في المربع السيميائي¹⁹.



الرسم البياني للمربع السيميائي.

إن المربع السيميائي لغريماس "وسيلة لتحليل المفاهيم السيميائية المزدوجة بعمق أكبر، فيضع خارطة للوصل والفصل بين السمات الدلالية في النص"²⁰.

ومن ناحية أخرى، إن ميزة المربع السيميائي هي التناقض التدريجي وغير التدريجي، يقول فريدريك جايمنسون إن: "التركيبية بأجمعها... تستطيع أن تولد عشرة مواقع انطلاقاً من تقابل ثنائي أولي"²¹. إن هذا الكلام يؤدي بنا إلى عدة احتمالات دلالية في المنظومة السيميائية، ويجرتنا بعيداً عن المنطق المزدوج، الذي يفرض علينا أن نأخذ بهذا أو ذاك، إلا أن هذه الاحتمالات المتعددة تخضع للقيود السيميائية، وهي العلاقات التي تربط فيما بينها (علاقة التضاد وشبه التضاد وعلاقة التضمنين)، وهذه العلاقات هي التي تكشف عن البنية العميقة على شكل محاور أساسية تمثلها الزوايا الأربع للمربع، كما هو واضح في الرسم البياني للمربع السيميائي أعلاه.

تمثل العلاقة الأفقية تقابلاً ثنائياً بين كلّ عنصر في الجهة اليسرى مع العنصر في الجهة اليمنى، الذي يدخل معه في علاقة ثنائية، يمثل العنصران اللذان في الأعلى (عنصر1، عنصر2) حضوراً، بينما يمثل العنصران في الأسفل (غير عنصر1، غير عنصر2) غياباً، أمّا العلاقات الأفقية فهي علاقات استلزام، تقدّم توليفاً أفهوميّاً بديلاً، مثال:

عنصر1 مع عنصر غير2 $\Leftrightarrow$ أبيض مع غير أسود.

عنصر2 مع عنصر غير1 $\Leftrightarrow$ أسود مع غير أبيض.

تنتج مجموعة من العلاقات بين الزوايا الأربع، هي كالآتي:

تناقض غير تدرجي أو تقابل $\Leftarrow$ (رجل/امرأة).

تكامل أو استلزام $\Leftarrow$ رجل $\Leftrightarrow$ لا امرأة.

امرأة $\Leftrightarrow$ لا رجل.

تناقض تدرجي: رجل/لا رجل $\Leftarrow$ امرأة/لا امرأة.

ويعني هذا أنه ليست العلاقة بين المزدوج الأصلي تقابلاً ثنائياً²²، وهذا ما يسمح بإنتاج رباعيّات، وحتىّ يمكن أن تصل إلى عشرة.

من خلال ما تقدّم، نفهم أنّ المربع السيميائي أعقد ممّا كنّا نتصوّره، لذا نجد بعض الباحثين يقعون في السطحيّة، يكاد يقتصر على إعطاء "إطار موضوعي منظور يجعل براهين ضعيفة وآراء ذاتيّة تبدو مترابطة ومحكمة نظرياً"²³، ومحمد مفتاح لم يختار المربع السيميائي اعتباراً، بل كان يعلم مدى عمقه، ودوره في إظهار البنية العميقة للخطاب. كما أنّ المربع السيميائي هو الجسر بين الخطاب والحياة، فهو يساعدنا على فهم وتفسير الظواهر، عن طريق إعادة بناء الواقع وتشريح التجربة فيه إلى تعارضات تحسن من استيعابنا للتجربة الانسانية.

2- البنية العامليّة:

يقصد بالبنية العامليّة العنصران اللذان يقعان في البنية السردية السطحيّة، وهما النّمودج العاملي والخطاطة السردية، فالبنية العامليّة "تعدّ وسطاً بين ما هو متجلّ متفرّد وما هو موعّل في التجديد والتعميم"²⁴.

تخضع البنية العامليّة وتلتزم بسلسلة من الحالات (Eras) والتحوّلات أو التغيرات (Transformation)، "جعلت غريماس يقرّ أنّ السردية (Naratinité) توجد في كلّ الأنساق الدالّة، تتعلّق بالكينونة (Etres) وتعود التحوّلات إلى الفعل والظهور (Paraitre)"²⁵، وبهذا يكون الخطاب السردى بمثابة نشاط إنسانيّ.

حدّد غريماس شروط وجود البنية السردية باعتبارها "مرتبطة بالسلوك الإنساني. في وجود نموذج دلالي/منطقي يشغل كمعادل لبنية مشخّصة، وفي هذا الاتجاه يقترح للانتقال من المستوى الأوّل إلى المستوى الثّاني، مسارا توليديا يقودنا إلى التّمظهر النّصي، عبر محطّات تخضع لمجموعة من المقتضيات"²⁶، ويقصد هنا غريماس بالتّمظهر النّصي "البنية العامليّة" التي يتجلّى فيها النّشاط الانساني في شكله الخطابي، في مساره التّوليدي، الخطّي، أي الاحتكام إلى مقتضيات المواد اللّغويّة التي تحمل البنيات الدّلاليّة، ونعني بالدّلالة هنا كلّ تلك التّمظهرات والتّعارضات التي على شكل قالب لغويّ وغير لغويّ (كالرّقص، الموسيقى، المسرح، السّنما)، لأنّ السّردية عند غريماس لا تعبأ بمادّة تمظهرها، وهنا انطلاقا من فكرة السّيميائيّات باعتبارها علما عامّا للدّلالة.

إنّ تلك العلاقات والتّعارضات التي شكّلت الدّلالة عن طريق مجموعة العلاقات التي تحدّثنا عنها آنفا، وبيّناها في المربّع السّيميائي (التّضاد، شبه التّضاد والتّضمن)، هذه تشكّل البنية الدّلاليّة، وهي خارجة عن الزّمن "فإنّ البنية الدّلاليّة البسيطة التي يقول عنها غريماس، إنّها ذات طابع لازمني، يمكن اعتبارها مؤولا نهائيا"²⁷.

تعمل العلاقة الضّمنيّة على الرّبط بين البنية الدّلاليّة والبنية التّركيبية عن طريق البنية العامليّة. والانتقال من حالة ثبوت إلى حالة تحوّل، "وعلى أساس وجود قواعد للتّحول الممكن من الدّلالي إلى التّركيبي (من العلاقات إلى العمليّات)"²⁸، وتتجسّد العمليّة التّركيبية للخطاب على شكل عمليّات تنطوي تحت البنية العامليّة، التي تفترض وجود ملفوظين مختلفين، هما: ملفوظ حالة (Enoncé d'état)، يتعلّق الأمر بين الذات (Sujet) والموضوع (Objet)، وملفوظ الفعل (Enoncé de faire)، يرتبط بالتّحول في هذه العلاقة، إمّا اتّصالا أو انفصالا، يلزم من ذلك ملفوظين للحالة:

- ملفوظ حالة اتصال Conjonction: يكون العامل الذات متّصلا بالعامل الموضوع، يرمز للاتّصال بالرمز $\cap$ ، حيث: عامل الذات $\cap$ عامل الموضوع.
- ملفوظ حالة انفصال Disjonction: يكون العامل الذات منفصلا عن العامل الموضوع، ويرمز للانفصال بالرمز $\cup$ ، حيث: عامل الذات $\cup$ عامل الموضوع.
- أمّا ملفوظ الفعل أو التّحوّل فيرتبط بالانتقال من حالة إلى حالة أخرى، حيث نجد شكلين من التّحوّل:

تحوّل الاتّصال: يتمّ الانتقال من حالة الانفصال إلى حالة الاتّصال، ويرمز له الآتي:

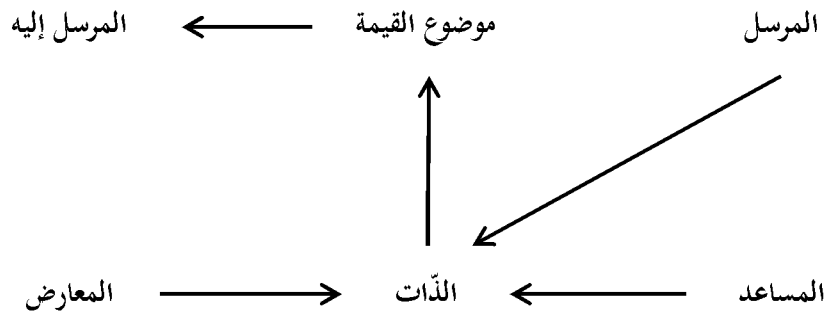
عامل الذات $\cup$ عامل الموضوع $\Leftarrow$ عامل الذات $\cap$ عامل الموضوع



تحوّل من حالة انفصال إلى حالة اتّصال

إنّ هذه الحالات والتحوّلات هي التي تشكّل البرنامج السّردي عند غريماس، وهو مرتبط مباشرة بـ (الذّات والموضوع)، وهذا يحيلنا إلى أنّ البنية العامليّة لها علاقة بالمقصديّة، لأنّ محرّك عامل الذّات وما يدفعه إلى عامل الموضوع (القيمة) هو المقصديّة، التي ربطها غريماس بمحور الرّغبة.

يسمّي غريماس تتابع الحالات والتحوّلات "Programme naratif"، ويرتبط بالعلاقة (ع-م)، وتحوّلاتها الاتّصاليّة والانفصاليّة، وهذا القول، أي القيام بالبرنامج السّردي يتطلّب فاعلا إجرائيا (sujet opérateur) مؤنسنا (Anthropomorphe)²⁹، ويقصد هنا غريماس بالفاعل الاجرائي الذّات التي تسعى نحو موضوع القيمة. ملاحظة يجب ذكرها، قد يحدث الخلط بين البرنامج السّردي والبنية العامليّة، لذلك حري بنا الإشارة إلى أنّ البنية العامليّة هي النّظام أو نسق يترجم إلى عمليّة اجرائيّة، إذ أنّ النّمودج العاملي "يعدّ انتقالا من العلاقات (المربّع السّيميائي) إلى العمليّات"³⁰، وقد أشرنا إلى ذلك في السّابق، بأنّ البنية العامليّة اجرائيّة لعلاقة التّضمنين خاصّة التي في المربّع السّيميائي، وهذه العمليّة الاجرائيّة نسقا "فنسقيّته تتجلّى في كونه صورة أو شكلا ميثاليّا تجريديّا يعدّ بنية قابلة لفهم المتخيّل البشري، وانعكاسا للكون الجماعي، يمكن صياغته صوريّا"³¹، فتتجلّى صوريّا على الشّكل الآتي:



وهذه البنية العامليّة استخلص منها غريماس ثلاث ثنائيات عامليّة³²:

- **المرسل/المرسل إليه:** ويطلق عليه محور التّواصل، ويكون دور العامل المرسل هو إقناع العامل الذّات بالبحث عن موضوع القيمة، كما أنّه يقوم المسار السّردي باعتباره فاعلا تأويليّاً، أمّا المرسل إليه فهو المستفيد من الموضوع.
- **الذّات/الموضوع:** تشكّل هذه الثّنائيّة القطب المركزي في الأنمودج العاملي، إذ يعتبر محور الرّغبة، أي أنّ الذّات ترغب في الحصول على موضوع القيمة، ويكون هذا بعد إقناع الذّات من قبل المرسل. أمّا الموضوع فهو المرغوب فيه من قبل الذّات.
- **المساعد/المعارض:** يحكم كلّ من عامل المساعد وعامل المعارض، محور الصّراع. فالمساعد يساعد العامل الذّات في البحث عن موضوع القيمة، أمّا المعارض فيسعى ليعيق الذات ويمنعها عن موضوع القيمة.

وبهذا نكون بيّنا البنية العامليّة، كما هي في السيميائية السردية. لكنّ هنا نطرح السؤال الآتي: ما علاقة المربع السيميائي والبنية العامليّة، اللتان هما من إواليّات التحليل السيميائي للخطاب السردى، بالخطاب الشعري، عند محمد مفتاح؟

ومن جهة أخرى نعود إلى مفهوم الدينامية الذي يسعى مفتاح إلى تقصّيه، في كلّ نظريته ومبادئها. إذن، هل هاتان الإواليّتان (المربع السيميائي والبنية العامليّة) تتجلّى فيها الديناميكية ومبادئها (التّغير، التّحول...) كما بيّنا في المقصديّة. إنطلاقاً من فكرة سابقة، أنّ السرد كمكوّن أساس في النّشاط الإنساني، وبما أنّ تحليل الخطاب من بين هذه النّشاطات، إلّا أنّها في قالب لغويّ لكنّ مميّز، لأنه مرتبط بالانفعال الشعري، لأنّ السيمياء تبحث أيضاً في "تحليل الأقوال الأفعال القولية مع جملة الموجّهات (modalités). كونها من مكوّنات الرّسالة الأساسيّة لاستنباط معالم العالم الخاصّ للشّاعر، وذلك من جهة التّداول "pragmatique" لأنّ الشّاعر يرسم عالماً قد يكون حقيقياً أو ممكناً، يكون صدق القضايا فيه صدقاً ضرورياً أو صدقاً مطلقاً "من جهة الضّرورة والامكان (modalités aléiques) بمؤشّرها: يجب أن يكون لتغيير محمول قول داخل المربع السيميائي"³³

من جهة ثالثة، وكما أشرنا، فإن البنية العامليّة هي إجراء عملي لعلاقات المربع السيميائي، و"الانفعال البشري مرهون بظهور الاحساس وتمكّنه من الذات على وجه الحقيقة أو الزّيف، والسّر والكذب، أو ما يسمّى بالكينونة والظهور (paraitre et être)"³⁴، بالتّالي، فالبنية العامليّة وخاصّة علاقة الذات (الفاعل) بموضوع القيمة – أي محور الرّغبة – التي هي أحد أقطاب التّفاعل في النّسق الدّاخلي للخطاب الشعري. ومحور الرّغبة هو محرك القصدية، أي أنّ عامل الذات (الفاعل) يَفْصِد نحو موضوع القيمة، إمّا راغباً فيها أو راغباً عنها أو بينهما، وبالتّالي، كما قلنا آنفاً في عنصر المقصديّة، أنّ هذه الرّغبة هي التي تدفع الذات الفاعلة إلى الحراك، وهذا الحراك ينتج عنه التّحول، من ملفوظ³⁵ حالة (ذات فاعلة) إلى ملفوظ تحوّل (عامل الذات)، كما بيّناها في البنية العامليّة، وبالتّالي، ينتقل الخطّ السردى التّوليدي الدّيداكتيكي من حالة ثبات وسكون إلى حالة تحوّل وحراك، وهنا تكمن إستناداً إلى مقوّمات وسمات مبدأ الدينامية التي هي (التّحول، التّغير...)، فإنّ كلّ من المربع السيميائي والبنية العامليّة يخضعان لمبدأ الدينامية، وبالتّالي فالخطاب الشعري كائن حيّ، باعتباره جنس أدبيّ، كما وضّحنا أنّ الأجناس الأدبيّة كائنات حيّة استناداً إلى النّظرية البيولوجيّة التّطوريّة. وكما أشار إليه فرديناند برونّتار "Ferdinand Brunetière" في كتابه "L'évolution des Genres". وهذا ما ذهب إليه مفتاح في تحليل الخطاب الأدبي سيميائياً وثقافياً.

خاتمة:

نصل في نهاية البحث إلى نتائج عديدة، نختصرها على الآتي:

- 1- كثافة المفاهيم السيمائية والبلاغية والتداولية تساعد على فهم أنساق الخطاب الأدبي وجماليته؛
- 2- الخلفية المعرفية المركبة لمحمد مفتاح جعلته يؤسس لعدة نظريات عبر دمج المفاهيم وتأصيلها؛
- 3- مفهوم الدينامية النصية مؤسس لعدة قدرات تحليلية في الخطاب، وكاشف للأنساق المعرفية والجمالية.
- 4- يمكن الحديث عن نظرية سيموتداولية في النقد الثقافي ضمن حدود البحث عن الأنساق والقبحيات، وبعيدا عن الجماليات.
- 5- يمكن للمربع السيميائي والنموذج العاملي أن يقدم آليات جديدة للبحث عن الأنساق بعيدا عن فكرة شكل المحتوى التقليدية.

الهوامش:

- 1 سمير المرزوقي: مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 117.
- 2 J.Greimas : Sémantique structural, Ed: Larousse, Paris, 1966, P249.
- 3 محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز، ط.3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ص 38.
- 4 محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، ط.3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1992، ص 164.
- 5 المرجع نفسه، ص 164.
- 6 Voir : Grice. H.P. Meaning, The philosophical Review, Vol 66, n0 3, Jul 1957, pp377-388.
- 7 Grice.H.P : Logic and conversation, incol, p13. And Morgan.J.L (eds), p41-58.
- * لم نشأ تقديم عرض تفصيلي لهذا المبدأ، لأنه بات معروفا، وتناولته البحوث والدراسات كثيرا.
- 8 محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص 164-165.
- 9 المرجع نفسه: ص 165.
- 10 François Jaques : La mise en communauté de l'énonciation, in langage, Juin (2), 1982, no70, pp47-71.
- 11 محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص 165.
- 12 Searle.J.R: Speech Act, An Essay in the philosophy of language, Cambridge University Press, Cambridge, 1969, pp66-67.
- 13 Voir : J. Searle : Intentionality, An essay in the philosophy of mind, Cambridge press, 31 mai, 1983.
- 14 Herman Parret : Pragmatique philosophique et épistémologie de la pragmatique : connaissance et contextualité, Amsterdam, 1980, pp9-189.
- 15 محمد مفتاح: دينامية النص، ص 9.
- 16 A.J.Greimas- J.Courté (1979), Sémantique- Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, « Carré Sémantique », pp29-33.

- 17 محمد مفتاح: دينامية النص، ص9.
- * للاستفسار أكثر عن هذه العلاقات، يمكن الاطلاع عليها في الموقع الآتي: www.sigmo-semio.com/lecarrésémiotique
- 18 محمد مفتاح: دينامية النص، ص11.
- 19 دانيال تشاندلر: أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان، 2008، ص188.
- 20 دانيال تشاندلر: أسس السيميائية، ص186. وهذا المربع هو الذي يبين التقابلات والتقاطعات بين الخطابات وبين الممارسات والأفعال الحقيقة في الحياة الاجتماعية.
- 21 المرجع نفسه، ص186.
- 22 المرجع نفسه، ص186.
- 23 المرجع نفسه، ص190.
- 24 Greimas.A.J : De sens, Ed Seuil, Paris, 1970, p160.
- 25 Group D'Entrevernes : Analyse sémiotique des textes, Ed Tobkal, Casablanca, 1987, p14.
- 26 سعيد بنغراد: السيميائيات السردية: مدخل نظري، منشورات الزّمن، الدار البيضاء، 2001، ص51.
- 27 المرجع نفسه، ص55.
- 28 المرجع نفسه: ص56.
- 29 Courtes.J : Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Ed Hachette, Paris, 1976, pp16-17.
- 30 Greimas.A.J et Courtes.J : Sémiotique, Dictionnaire résonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979, p16.
- 31 عبد المجيد العابد: النقل الديداكتيكي للمفاهيم السيميائية- الخطاطة السردية والنموذج العاملي مثالا، مقالة في موقع رابطة أدباء الشام،
عبر موقع <http://search.shamaa.org/FullRecord?ID=28280>
- 32 Greimas.A.J : Sémantique structural, Ed, Larousse, Paris, 1976, p177.
- 33 محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص157.
- 34 المرجع نفسه: ص159.